لمحاتٌ في إعجاز سورة الأعراف

بقلم

د . حسن محمّد با جودة

أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة

بجامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله رب العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين، سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فهذه الدّراسة بعنوان: " لمحاتٌ في إعجاز سورة الأعراف " مستلّةٌ من دراسة للسّورة الكريمة في أكثر من ستّمائة صفة بعنوان: " تأمّلاتٌ في سورة الأعراف" وتهدف هذه الدّراسة إلى إلقاء الضّوء على بعض المسائل المتعلّقة بالسّورة الكريمة، وعلى بعض مظاهر إعجاز السّورة الكريمة، مع ضرب بعض الأمثلة.وبناءً على ذلك فإنّ هذه الدّراسة تتألّف من شقّتين اثنين.

أحدهما بعنوان: مسائل متعلّقة بسورة الأعراف. وآخرهما بعنوان: من مظاهر إعجاز سورة الأعراف.

والله تعالى أسأل أن ينفع بهذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم جلّ وعلا، وأن يتقبّله، وأن ينفع به، إنّه عزّ وجلّ أكرم مسئول وأعظم مأمول.

وصلّى الله وسلم على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين .

والحمد لله ربّ العالمين.

مكّة المكرّمة
صبيحة يوم الجمعة
١٤١٤/١٢/٣هـ
الموافق ١٩٩٤/٥/١٣م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
د . حسن محمّد با جودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانية
بجامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

مسائل متعلّقةٌ بسورة الأعراف

١- سورة الأعراف مكّيّة كلّها. قاله الضّحّاك وغيره. وقيل هي مكّيّة إلاّ خمس آياتٍ أو ثماني آياتٍ تبدأ بالآية الكريمة الثّالثة والسّتيّن بعد المائة. قال تعالى[1]: ﴿ واسألهم عن القرية الّتي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السّبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم . كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون . وإذ قالت أمّةٌ منهم لِمَ تَعِظون قوماً الله مهلكهم أو معذّبهم عذاباً شديداً قالوا معذرةً إلى ربّكم ولعلّهم يتّقون .فلمّا نسوا ما ذكّروا به أنجينا الّذين ينهون عن السّوء وأخذنا الّذين ظلموا بعذابٍ بئيسٍ بما كانوا يفسقون.فلمّا عتوا عمّا نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردةً خاسئين. وإذ تأذّن ربّك ليبعثنّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب. إنّ ربّك لسريع العقاب وإنّه لغفورٌ رحيم . وقطّعناهم في الأرض أمماً . منهم الصّالحون ومنهم دون ذلك . وبلوناهم بالحسنات والسّيّئات لعلّهم يرجعون . فخلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتاب يأخذون عَرَض هذا الأدنى ويقولون سيُغفَرُلنا وإن يأتهم عَرَضٌ مثله يأخذوه . ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألاّ

---

[1] سورة الأعراف ١٦٣-١٧٠.

يقولون على الله إلاّ الحقَّ ودرسوا ما فيه . والدّار الآخر خيرٌ للّذين يتّقون أفلا تعقلون . والّذين يُمَسِّكون بالكتاب وأقاموا الصّلاة أنّا لا نضيع أجر المصلحين ﴾[1] ومن البيّن أنّ هذه الآيات الثّمانِيَ الكريمات تتحدّث عن بني إسرائيل. والمعروف أنّ سورة الأعراف المكّيّة هذه من أكثر سور لقرآن الكريم حديثاً عن بني إسرائيل الّذين كانوا يسكنون آنذاك بيئة المدينة المنوّرة وليس بيئة مكّة المكرّمة، والمعروف كذلك أنّ معرفة المكّيّ والمدنيّ من القرآن خضعت أحياناً لاجتهاداتٍ شخصيّة.

٢- عددُ آيات السّورة الكريمة مائتان وستّ آيات. وعددُ كلماتها ثلاثة آلاف وثلاثُمائة وخمسٌ وعشرون كلمة. وعددُ حروفها أربعة عشر ألفاً ومائتان وعشرة حروف[2].

٣- أولى السّور المكّيّة في المصحف الشّريف سورة الفاتحة ثمّ سورة الأنعام ثمّ سورة الأعراف.

---

[1] انظر مثلاً تفسير ابن عطيّة ٥/٤٢٢ والبحر المحيط ٤/٢٦٤ وتفسير ابن كثير ٢/٢٠٠ والجلالين وتفسير البيضاوي ١/٣٤١ والإتقان ١/٤٢ وفتح القدير ٢/١٨٧ وتفسير النّسفي ٢/٤٤ والكشّاف ١/٥٣٨ والدّرّ المنثور ٣/٤١٢ وزاد المسير ٣/١٦٤ وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنّيسابوري مطبوع بهامش الطبري ٨/٥٦.

[2] تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٨/٥٦.

٤- سورة الأعراف إحدى السَّبع الطُّول[١] والسّبع الطُّول أوّلها البقرة وآخرها براءة[٢] وهي البقرة وآل عمران والنّساء والمائدة والأنعام والأعراف وبراءة.

٥- سمّيت السّورة الكريمة بسورة الأعراف بسبب مجيء هذه اللّفظة مرّتين اثنتين في السّورة الكريمة. في الآية الكريمة السّادسة والأربعين. قال تعالى:﴿ وبينهما حجاب . وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كلاًّ بسيماهم . ونادَوْا أصحاب الجنّة أن سلامٌ عليكم . لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ وفي الآية الكريمة الثّامنة والأربعين. قال تعالى:﴿ ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون﴾ .

٦- ثبت أنّ النّبيّ ﷺ قرأ في المغرب بالأعراف في الرّكعتين جميعاً[٣].

٧- تبدأ السّورة الكريمة بالحروف المقطّعة ﴿ المص ﴾ وسورة الأعراف واحدةٌ من تسعٍ وعشرين سورةً تبدأ بهذه الحروف المقطّعة باعتبار مطلعي سورتي طه ويس ﴿طه ﴾ و ﴿ يس ﴾ من

---

[١] الطُّول جمع اسم تفضيل المؤنّث طُولَى. أمّا المفرد المذكّر لأَطْول والجمع الأطاول.

[٢] الإتقان ١/٢٢٠.

[٣] الدّرّ المنثور ٣/٤١٢ وفتح القدير ٢/١٨٧.

هذه الحروف[1] والمعروف أنّ كلّ السّور الّتي تبدأ بهذه الحروف المقطّعة يأتي فيها الانتصار للقرآن الكريم على الفور؛ وهو الغالب، أو على التّراخي. وسورة الأعراف من السّور الكريمة الّتي جاء فيها الانتصار للقرآن الكريم على الفور. وإذا كان في أوّل السّورة الكريمة حديثٌ عن القرآن الكريم فإنّ في آخر السّورة الكريم حديثاً عن القرآن الكريم أيضاً. وأنّ الحديث عن القرآن الكريم في أوّل السّورة الكريمة وفي آخرها من مظاهر التّرابط بين أجزاء السّورة الكريمة وإن تباعدت.

٨- سورة الأعراف المكّيّة هذه الّتي قبل هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة المنوّرة من أكثر سور القرآن الكريم حديثاً عن بني إسرائيل الّذين كانوا يسكنون آنذاك منطقة المدينة المنوّرة. وهذا من الأدلّة على عالميّة الدّعوة الإسلاميّة منذ فجرها فإنّ حديث السّورة الكريمة المستفيض عن بني إسرائيل كان قبل احتكاك المسلمين المباشر باليهود في منطقة المدينة المنوّرة بعد الهجرة. والمعروف أنّ في سورة الأعراف الكريمة نصّاً صريحاً على أنّ لمصطفى ﷺ رسول الله تعالى إلى النّاس جميعاً. قال عزّ من قائل[2] ﴿ قل يا أيّها النّاس

---

[1] انظر مثلاً تأمّلات في سورة البقرة ١٦/١ وتفسير ابن كثير ٣٨/١.

[2] سورة الأعراف ١٥٨.

إنّي رسول الله إليكم جميعاً الّذي له ملك السّماوات والأرض لا إله إلاّ هو يحيى ويميت فأمنوا بالله ورسوله النّبيّ الأمّيّ الّذي يؤمن بالله وكلماته واتّبعوه لعلّكم تهتدون ﴾.

٩- ذَكَرَت سورة الأعراف وحدها على جهة التّفصيل آيات موسى عليه السّلام التّسع وهي العصا واليد والسّنون ونقص الثّمرات والطوفان والجراد والضّفادع والدّم. قال عزّ من قائل[١]:﴿ وقال موسى يا فرعون إنّي رسولٌ من ربّ العالمين . حقيقٌ على ألاّ أقولَ على الله إلاّ الحقّ . قد جئتكم ببيّنةٍ من ربّكم فأرسل معي بني إسرائيل. قال إن كنت جئت بآيةٍ فأت بها إن كنت من الصّادقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للنّاظرين ﴾ وقال تعالى[٢]:﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسّنين ونقصٍ من الثّمرات لعلّهم يذّكرون ﴾ وقال تعالى[٣]:﴿ فأرسلنا عليهم الطّوفان والجراد والقمّل والضّفادع والدّم آياتٍ مفصّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾.

١٠- جاء نداء بني آدم في هذه الصّيغة: ﴿ يا بني آدم ﴾ في القرآن الكريم كلّه خمس مرّات، مِنْها أربع مرّاتٍ في سورة الأعراف

---

[١] سورة الأعراف ١٠٤-١٠٨.

[٢] سورة الأعراف ١٣٠.

[٣] سورة الأعراف ١٣٣.

وحدها وذلك في الآيات الكريمات ٢٦-٢٧-٣١-٣٥ قال تعالى[٤]: ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلّهم يذّكرون . يا بني آدم لا يفتننّكم الشّيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم. إنّا جعلنا الشّياطين أولياءَ للّذين لا يؤمنون ﴾ وقال تعالى[٥]: ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كلّ مسجدٍ وكلوا واشربوا ولا تُسْرفوا إنّه لا يحبّ المسرفين ﴾ وقال تعالى[٦]: ﴿ يا بني آدم إمّا يأتينّكم رسلٌ منكم يقصّون عليكم آياتي فمن اتّقى وأصلح فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ والمرّة الخامسة في الآية الكريمة السّتّين من سورة يس . قال تعالى: ﴿ ألم أَعْهَدْ إليكم يا بني آدم ألاّ تعبدوا الشّيطان إنّه لكم عدوٌّ مبين ﴾.

وأمّا صيغة ﴿ بني آدم ﴾ في غير النّداء فقد جاءت في القرآن الكريم مرّتين اثنتين، إحداهما في سورة الأعراف الكريمة وأخراهما في سورة الإسراء الكريمة. قال تعالى[١]: ﴿ وإذا أخذ ربّك

---

[٤] سورة الأعراف ٢٦-٢٧.

[٥] سورة الأعراف ٣١.

[٦] سورة الأعراف ٣٥.

[١] سورة الأعراف ١٧٢.

من بني آدم من ظهورهم ذرّيّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة أنّا كنّا عن هذا غافلين ﴾ وقال تعالى[٢]: ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطّيبات وفضّلناهم على كثيرٍ ممّن خلقنا تفضيلاً ﴾.

١١- نستطيع أن نستنتج مؤهّلات الدّاعية ومقوّمات الدّعوة إلى الله تعالى في سورة الأعراف ممّا جرى على لسان نوحٍ وهودٍ عليهما السّلام. جاء في الآية الكريمة الثّانية والسّتّين على لسان نوحٍ عليه السّلام قولُ الحقّ جلّ وعلا: ﴿ أبلّغكم رسالات ربّي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ وجاء في الآية الكريمة الثّامنة والسّتّين على لسان هودٍ عليه السّلام قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿أبلّغكم رسالات ربّي وأنا لكم ناصحٌ أمين ﴾ إنّ هذه المؤهلات أو المقومات هي: البلاغ . والنّصح . والعلم . والأمانة .

١٢- وجه الشّبه واضحٌ بين آيات سورة الأعراف وبعض الآيات من سورٍ أخر. وبشأن بعض الفروق بين هذه الآيات الكريمات يصحّ أن يكون ثمّة محاولات لتبيّن الحكمة وراء تلك الفروق.فعلى سبيل المثال جاء النّصّ على الانبجاس في حقّ الماء الّذي يخرج من

---

[٢] سورة الإسراء ٧٠.

الحجر بسبب ضرب موسى عليه السّلام له بعصاه وذلك في الآية الكريمة السّتّين بعد المائة من المائة من سورة الأعراف المكّيّة. قال تعالى: ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً . وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أَنِ اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً ﴾ والانبجاس خروج الماء أوّل الأمر خفيفاً بسبب ضيق الشّقوق ابتداءً . في حين جاء النّصّ على انفجار الماء في الآية الكريمة السّتّين من سورة البقرة المدنيّة . قال تعالى: ﴿ وإذا استَسْقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ﴾ والانفجار خروج الماء آخر الأمر عنيفاً بسبب اتّساع الشّقوق آخراً. وهكذا تمشّي الانبجاس المتقدّم، مع سورة الأعراف المكّيّة المتقدّمة نزولاً قبل الهجرة، كما تمشّي الانفجار المتأخّر، مع سورة البقرة المدنيّة المتأخرة نزولاً بعد الهجرة.

١٣- من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في مجال الإنباء بالغيب ما نصّت عليه الآية الكريمة الثّامنة والسّتّون بعد المائة من تقطيع الله تعالى بني إسرائيل في الأرض أُمَماً وجماعات. إنّ هذه الحقيقة زادتها القرون رسوخاً قال تعالى: ﴿ وقطَّعْناهم في الأرض أمماً منهم الصّالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسّيّئات لعلّهم يرجعون ﴾ .

١٤- ثمّة بلاغةٌ بالحذف في القول: ﴿ يسألونك كأنّك حفيٌّ عنها ﴾ من الآية الكريمة السّابعة والثّمانين بعد المائة. قال تعالى: ﴿ يسألونك عن السّاعة أيّان مُرْساها . قُلْ إنّما علمها عند ربّي لا يجليها لوقتها إلاّ هو . ثَقُلَتْ في السّماوات والأرض . لا تأتيكم إلاّ بغتة يسألونك كأنّك حفيٌّ عنها . قل إنّما علمها عند الله ولكن أكثر النّاس لا يعلمون ﴾ إنّ القول:﴿ يسألونك كأنك حفيٌّ عنها ﴾ كأنّ أصله يسألونك عنها كأنّك حفيٌّ بها . وبشأن القول: يسألونك عنها، نجد الدّليل على حرف الجرّ عن في صدر الآية الكريمة ذاتها: ﴿ يسألونك عن السّاعة ﴾ وبشأن القول: كأنّك حفيٌّ بها، نجد الدّليل على حرف الجرّ الباء في قول الحقّ جلّ وعلا على لسان إبراهيم عليه السلام خطاباً لأبيه الكافر آزر في سورة مريم[1]: ﴿ قال سلامٌ عليك سأستغفر لك ربّي إنّه كان بي حفيّا ﴾ إنّ القول: ﴿ يسألونك كأنّك حفيٌّ عنها ﴾ قام فيه باقتدار الجارّ والمجرور الواحد: " عنها" بسبب تأخّره ومجيئه في موضع الجارّ والمجرور الآخر: " بها " بدور الجارّين والمجرورين الاثنين معاً. وممّا ساعد على عدم مجيء الجارّ والمجرور: "عنها" في القول : " يسألونك " القول في صدر الآية الكريمة: ﴿ يسألونك عن السّاعة

[1] الآية ٤٧.

﴾ وحينما جاء الجارّ والمجرور متأخّرين كانا الجارّ والمجرور: " عنها " اللّذين قاما باقتدار بدور جارّين ومجرورين اثنين: " عنها" ويتعلّقان بالقول: " يسألونك" و: "بها" ويتعلّقان بالقول : "حفيّ" .

١٥- في الآية الكريمة السّادسة والخمسين، قال تعالى:﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً . إنّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين ﴾ يجيء لفظ قريبٌ في صيغة التّذكير ولا يجيء في صيغة التأنيث فلا يقال: إنّ رحمة الله قريبةٌ من المحسنين. ومن البيّن أنّ صيغة التأنيث الّتي لم تأت تقف عند معنى قرب الرّحمة ولا تتعدّاه إلى ما سواه من معنىً أو معان. فإذا تحوّلنا إلى صيغة التّذكير الّتي جاءت في القول: ﴿ إنّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين ﴾ استطعنا أن نتبيّن من ناحية أنّ مجيء لفظ قريب قد لبّى هتاف النّفس الّتي تنتظر بشوقٍ معنى قرب رحمة الله تعالى من المحسنين، واستطعنا أن نتبيّن من ناحيةٍ أخرى أنّ لفظ قريب في صيغة التّذكير قد راعى المعنى الأهمّ وهو قرب الله تعالى من المحسنين. وقد قال عزّ من قائل[٢]:﴿ وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريبٌ أجيب دعوة الدّاعي إذا دعان فلْيستجيبوا لي ولْيؤمنوا بي لعلّهم يَرْشُدون ﴾ وحينما تقرّر لفظ قريب في صيغة التّذكير قرب

---

[٢] سورة البقرة ١٨٦.

الله تعالى من عباده المحسنين يقرّر بدلالة الالتزام قرب رحمة الله تعالى البرّ الرّحيم بالمحسنين . وبذلك أفاد لفظ قريب في صيغة التّذكير معنيين اثنين، الأهمّ وهو قرب الله تعالى من عباده المحسنين، وهذا المعنى الأهمّ تعجز لفظه قريبة في صيغة التّأنيث عن إفادته . والمهمّ وهو قرب الرّحمة، ذلك القرب الّذي أفاده لفظ قريب في صيغة التّذكير الّتي جاء فيها لفظ الجلالة: ﴿ الله ﴾.

١٦- ممّا يلفت النّظر بشأن الآية الكريمة العشرين بعد المائة في قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ وألي السّحرة ساجدين ﴾ مجيء جملة: ُوألقي " في صيغة المبني للمجهول أو المفعول. وكأنّ قوّةً خفيّةً بسبب وضوح آية موسى عليه السّلام وقوّة حجّته وتأكّد السّحرة أنّ ربّ العزّة هو الّذي يؤيد موسى عليه السلام، وكأنّ قوّةً خفيّةً هي الّتي تُلْقِى بالسّحرة ساجدين على وجوههم لله ربّ العالمين تعبيراً فطرياً عن عميق الاقتناع وقويّ الإيمان.

١٧- في قول الحقّ جلّ وعلا في الآيتين الكريمتين السّابعة والثّامنة بعد المائة، قال تعالى: ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للنّاظرين ﴾ اكتفاءٌ بذكر الشّقّ الأوّل لكلٍّ من المعجزتين . إنّ إلقاء العصا يتلوه أخذُ موسى عليه السّلام لها كي تعود عصاً مرّةً أخرى. وإنّ نزع موسى عليه السّلام يده أوكفّه من

تحت إبطه في المرّة الأولى كي تكون بيضاء للنّاظرين يتلوه نزعها مرّةً أخرى كي تعود أدماء كما كانت. ومن البيّن أنّ نزع اليد في كلٍّ من المرّتين يسبقه إدخالٌ لها من جيب قميصه والقطع من القميص الّذي يدخل موسى عليه السّلام فيه رأسه إذا أراد أن يلبس القميص. ويستمّر موسى عليه السّلام في كلٍّ من المرّتين في إدخال يده حتّى تصل إلى إبطه، ويضغط عليها بجناحه، وينزل عليها بجانبه. إنّ إدخال اليد في المرّة الأولى يعقبه خروجها بيضاء مضيئةً من غير مرضٍ ولا برص. وإنّ إدخال اليد في المرّة الأخرى يعقبه خروجها أدماء كما كانت من ذي قبل.

١٨- سورة الأعراف المكّيّة نزلت – مثلاً – قبل سورة الأنعام المكّيّة وسورة الشّعراء المكّيّة[١] وممّا قد يتمشّى مع النّزول المتقدّم لسورة الأعراف الكريمة الإدغام لجملة يضّرّعون في قول الحقّ جلّ وعلا[٢]: ﴿ وما أرسلنا في قريةٍ من نبيّ إلاّ أخذنا أهلها بالبأساء والضّرّاء لعلّهم يضّرّعون ﴾ وممّا قد يتمشّى مع النّزول المتأخّر لسورة الأنعام فكّ التّضعيف لجملة يتضرّعون في قول الحقّ جلّ

---

[١] انظر الإتقان ١/٤٢و٤٣.

[٢] سورة الأعراف ٩٤.

وعلا[٣]: ﴿ ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضّرّاء لعلّهم يتضرّعون ﴾.

وإذا اعتبرنا الإدغام أو التّضعيف ضرباً من الاختزال واعتبرنا استعمال اسم الضّمير بالقياس إلى استعمال الاسم الظّاهر ضرباً من الاختزال كذلك استطعنا أن نجد الدّليل على ذلك بالمقارنة بين آيتين كريمتين أولاهما في سورة الأعراف المتقدّمة نزولاً، وأخراهما في سورة النّمل المتأخرة نزولاً[٤] جاء في سورة الأعراف اسم الضّمير العائد إلى آل لوطٍ عليه السّلام. قال عزّ من قائل[٥]: ﴿وما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنّهم أناسٌ يتطهرّون ﴾ في حين جاء النّصّ على آل لوطٍ عليه السّلام في قول الحقّ جلّ وعلا في سورة النّمل[٦]: ﴿ فما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا أخرجوا آل لوطٍ من قريتكم إنّهم أناسٌ يتطهّرون ﴾.

ويبد وضربٌ من ضروب الاختزال حينما تتمّ المقارنة بين مجموعتين من الآيات الكريمات تتحدّثان في موضوعٍ واحد في

---

[٣] سورة الأنعام ٤٢.

[٤] انظر الإتقان ١/٤٢و٤٣.

[٥] سورة الأعراف ٨٢.

[٦] الآية ٥٦.

سورتين اثنتين كريمتين. جاء في سورة الأعراف[1] قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إنّ هذا الساحرٌ عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين . يأتوك بكلّ ساحرٍ عليم . وجاء السّحرة فرعون قالوا إنّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين . قال نَعَم وإنّكم لمن المقرّبين ﴾ وجاء في سورة الشّعراء المتأخّرة نزولاً[2] قول الحقّ جلّ وعلا[3]: ﴿ قال للملأ حوله إنّ هذا الساحرٌ عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين . يأتوك بكلّ سحّارٍ عليم . فَجُمع السّحرة لميقات يومٍ معلوم . وقيل للنّاس هل أنتم مجتمعون . لعلّنا نتّبع السّحرة إن كانوا هم الغالبين . فلمّا جاء السّحرة قالوا لفرعون أئنّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين . قال نعم وإنّكم إذاً لمن المقرّبين ﴾ ويصحّ أن نتلمّس ظاهرة الاختزال أو الاختصار بشأن آيات سورة الأعراف فيما يلي:

أ – آيات سورة الأعراف ستّ. وآيات سورة الشّعراء تسع، أي بزيادة هذه الآيات الكريمات الثّلاث. قال تعالى: ﴿ فَجُمِعَ

---

[1] الآيات ١٠٩-١١٤.

[2] انظر الإتقان ١/٤٢-٤٣.

[3] سورة الشّعراء ٣٤-٤٢.

السّحرة لميقات يومٍ معلوم . وقيل للنّاس هل أنتم مجتمعون . لعلّنا نتّبع السّحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾.

ب – جاء في سورة الأعراف القول: ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴾ وجاء في سورة الشّعراء القول: ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحرة فماذا تأمرون ﴾ ومن البيّن زيادة آية سورة الشّعراء بالقول: " بسحره ".

ج – جاء في سورة الأعراف القول: ﴿ يأتوك بكلّ سحارٍ عليم ﴾ وجاء في سورة الشّعراء القول: ﴿ يأتوك بكلّ سحّار عليم ﴾ ومن البيّن أنّ " سحّار" في آية سورة الشّعراء صيغة مبالغة وأنّ " ساحر " في آية سورة الأعراف اسم فاعل. ففي لفظة: "سحّار " زيادةٌ في المعنى.

د– جاء في سورة الأعراف القول: ﴿ وجاء السّحرة فرعون قالوا إنّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين ﴾ وجاء في سورة الشّعراء القول: ﴿ فلّما جاء السّحرة قالوا لفرعون أئنّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين ﴾ ويتّضح من المقارنة بين القولين: ﴿ إنّ لنا أجراً ﴾ ﴿ أئنّ لنا لأجراً ﴾ أنّ همزة الاستفهام ظاهرةٌ في آية سورة الشّعراء بينما هي مغمرةٌ في آية سورة الأعراف.

هـ- جاء في سورة الأعراف القول: ﴿ قال نعم وإنّكم لمنِ المقرّبين ﴾ وجاء في سورة الشّعراء القول: ﴿ قال نعم وإنّكم إذن لمن المقرّبين ﴾ ومن البيّن زيادة آية الشّعراء بالقول: " إذن ".

و- اقترن بالاختزال في سورة الأعراف فتورٌ في عواطف الملأ من قوم فرعون أو برودٌ في المشاعر. ومن البيّن أنّ الحديث في آيات سورة الشعراء دار بين فرعون من ناحية وبين ملئه من ناحيةٍ أخرى، في حين دار الحديث في آيات سورة الأعراف بين بعض الملأ من ناحية وبعضهم الآخر من ناحيةٍ أخرى. وليس الملأ هنا سوى الببّغاوات الّتي تردّد بألسنتها ما سمعته آذانها دون تدبّر أو تمحيص. وإذا كان فتور عواطف الملأ وبرود مشاعرهم يصحّ أن يستنتج من اتّجاه الحديث في آيات سورة الأعراف إلى الاختزال أو الاختصار كما تبيّن فإنّا نستطيع وراء ذلك أن نستنتجه من مجيء جملة " وأرسل " على لسان الملأ في آية سورة الأعراف: ﴿ قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين ﴾ ومجيء جملة "وأبعث" على لسان الملأ في آية سورة الشّعراء ﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين ﴾ ويتّضح الفتور في العواطف والبرود في المشاعر بالمقارنة بين المعاني المتعلّقة بكلٍّ من الجملتين. إنّ الملأ في حديثهم المباشر مع فرعون الطّاغية جاء على لسانهم جملة:

"وابعث" والمعروف أنّ البعث يقترن به الإثارة والتّوجيه[1] وفرط الحماس. وإنّ الملأ في حديث بعضهم مع بعضهم الآخر جاء على لسانهم جملة: " وأرسل" والمعروف أنّ الرَّسل يفيد الانبعاث على التّؤدة[2] فالرَّسل: السَّير السّهل. وناقةٌ رَسْلَةٌ: لا تكلّفك سياقاً. وناقةٌ رَسْلَةٌ أيضاً: ليّنة المفاصل. وشَعْرٌ رَسْل إذا كان مسترسِلاً. وتقول: على رِسْلِك، أي على هِيَنتِكِ[3] وذلك إذا أمرت رسولك بالانبعاث على التّؤدة وبالرّفق[4] علماً بأنّ لفظ الرّسول يفيد سهولة الانبعاث.

إنّ ملأ فرعون الّذين لا خلاق لهم كانت حرارة قولهم لفرعون عالية حينما جاء على لسانهم جملة: "وابعث" في حين كانت مشاعرهم باردة إثر حديث بعضهم لبعضهم الآخر حينما جاء على لسانهم جملة: "وأرسل ". ويبد وسرعة تحوّل عواطف الملأ من الحرارة إلى البرودة حينما نقارن بين آيات سورة الأعراف وآيات سورة الشّعراء في ضوء الفهم بأنّ حديث الملأ كان لفرعون أوّلاً ثمّ كان حديث بعض الملأ لبعضهم الآخر.

---

[1] انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: "بعث" ٥٢ ومعجم مقاييس اللّغة: "بعث" ٢٦٦/١.

[2] مفردات الرّاغب الأصفهاني: "رسل" ١٩٥.

[3] معجم مقاييس اللّغة: "رسل" ٣٩٢/٢.

[4] مفردات الرّاغب الأصفهاني: " رسل" ١٩٥.

١٩- تضمّنت سورة الأنعام والأعراف والإسراء آياتٍ في الحكمة مشتملةً على أحكام غير قابلةٍ للنّسخ في سائر الشّرائع. وهذه الآيات الكريمات في سورة الأنعام هي ١٥١-١٥٣ وفي سورة الإسراء هي ٢٢-٣٩[٥] وفي سورة الأعراف هي ٢٩-٣٣[٦] وهذه هي آيات سورة الأعراف[٧] قال تعالى: ﴿ قل أمر ربي بالقسط. وأقيموا وجوهكم عند كلّ مسجدٍ وادعوه مخلصين له الدّين كما بدأكم تعودون. فريقاً هدى وفريقاً حقّ عليهم الضّلالة . إنّهم اتّخذوا الشّياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنّهم مهتدون. يا بني آدم خذوا زينتكم عند كلّ مسجدٍ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنّه لا يحبّ المسرفين . قل من حرّم زينة الله الّتي أخرج لعبادة والطّيّبات من الرّزق . قل هي للّذين آمنوا في الحياة الدّنيا خالصةً يوم القيامة . كذلك نفصّل الآيات لقومٍ يعلمون قل إنّما حرّم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحقّ وأن تشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾ . ومن البيّن أنّ آخر آيات الحكمة تحصد المحرّمات فلا مكان

---

[٥] درسنا الآيات الكريمات في كتاب: تأمّلات في سورة الإسراء ٩٩-١٨١.

[٦] انظر مثلاً : الجواب الصّحيح لمن بدّل دين المسيح لابن تيمية ٣/١.

[٧] الآيات ٢٩-٣٣.

لمبتدعٍ ولا معتدٍ يخالف قول الحقّ جلّ وعلا في سورة المائدة[1]: ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا لا تحرّموا طيّبات ما أحلّ الله لكم ولا تعتدوا . إنّ الله لا يحبّ المعتدين ﴾ .

من مظاهر إعجاز سورة الأعراف :

١- تطوّر الدّلالة :

[1] الآية ٨٧.

من الظّواهر الّتي عُنِيَتْ بها دراستنا المتأمّلة لسورة الأعراف ظاهرة تطوّر الدّلالة بشأن صفة التّطيّر ولفظه طائر اللّتين جاءت الإشارة إليهما في الآية الكريمة الحادية والثّلاثين بعد المائة في قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيّئةٌ يطّيّروا بموسى ومن معه . ألا إنّما طائرهم عند الله ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ والمعنى أنّ فرعون وملأه إذا جاءتهم الحسنة من الله تعالى وما أكثر مجيء الحسنة إليهم قالوا لنا هـ١هـ ونحن أهلٌ لها ونستحقّها . وإن تصبهم السّيئة الفينة بعد الفينة ولا تخطئهم بإذن الله تعالى يطّيّروا بموسى عليه السّلام ومن معه من بني إسرائيل ويتشاءموا بوجودهم بين ظهرانيهم . وينسى القوم أنّ موسى عليه السّلام ومن معه هم بين ظهرانيهم أيضاً حينما تجيئهم الحسنات وتتوالى عليهم الخيرات فلماذا لا يتفاءلون بهم: وتبادر الآية الكريمة إلى الرّدّ على المتشائمين وتعلن بأنّ طائرهم عند الله تعالى وبأنّ الشّؤم إنّما حلّ بهم بسبب كفرهم فهو عقابٌ من الله تعالى حلّ بهم وعذابٌ نزل بساحتهم ولكنّ النّاس لا يعلمون ذلك ولا يفهمون أنّ ذنوبهم سبب البلاء الّذي حلّ بهم.

إنّ كلاً من صفة التّطيّر ولفظة طائر في مثل هذا السّياق تجيء في هذه الآية الكريمة لأوّل مرّةٍ في المصحف الشّريف من بين

ثلاث مرّات جاءت فيها صفة التّطيّر ولفظة الطّائر. أمّا المرّة الثّانية بناءً على ترتيب نزول السّور[1] ففي قوله الحقّ جلّ وعلا من سورة يس المكّيّة[2]: ﴿ قالوا إنّا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسّنّكم منّا عذابٌ أليم . قالوا طائركم معكم . أئن ذكّرتم بل أنتم قومٌ مسرفون ﴾ إنّ أهل القرية المشركين يقولون لرسل الله تعالى الثلاثة إليهم: إنّا تطيّرنا وتشاءمنا بكم . لئن لم تكفّوا عن الدّعوة إلى التّوحيد ونبذ الشّرك وتسفيه أحلامنا لنرجمنّكم بالحجارة وليمسّنّكم منّا عذابٌ أليم . قال رسول الله تعالى لقومهم: طائركم وشؤمكم معكم بسبب كفركم: ﴿ أئن ذكّرتم ﴾ أي إن ذكرناكم الله تطيّرتم بنا[1] بل أنتم في الحقيقة قومٌ مسرفون متجاوزون لكلّ الحدود.

وأمّا المرّة الثّالثة الّتي جاءت فيها صفة التّطيّر ولفظة الطّائر بناءً على ترتيب كذلك[2] ففي الحقّ جلّ وعلا عن صالح عليه السّلام وقومه في سورة النّمل[3]: ﴿ قالوا اطّيّرن بك وبمن معك

---

[1] انظر الإتقان ١/٤٣.

[2] الآية ١٨-١٩.

[1] تفسير الطبري ٢٢/١٠٢.

[2] انظر الإتقان ١/٤٣.

[3] الآية ٤٧.

قال طائركم عند الله بل أنتم قومٌ تُفْتَنون﴾ ومعنى تفتنون: تختبرون بالخير والشّرّ.

ويلحق بهذه المواضع الثّلاثة موضعٌ رابع في سورة الإسراء الّتي تأخر نزولها عن نزول سورة النّمل[٤] قال عزّ من قائل[٥]: ﴿ وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾.

وبشأن التّطيّر أو الطّيرة على وزن الخِيرة ، فقد خضع لظاهرة تطوّر الدّلالة، وكذلك الحال بشأن لفظه الطّائر.

إنّ التّطيّر يعني في الأساس التّفاؤل أو التّشاؤم بناءً على اتّجاه الطّائر الّذي يستثيره الإنسان وذهابه ذات اليمين أو ذات اليسار. ويلحق بالطّائر الظّباء وما إليها. والمعروف أنّ الإسلام أبطل الطّيرة بمعنى التّطيّر وأثبت الفأل واستحسنه.

وكان النّبيّ ﷺ يتفاءل ولا يتطيّر وأصل الفأل الكلمة الحسنة يسمعها عليلٌ فيتأوّل منها ما يدلّ على برئه، كأن سمع منادياً نادى رجلاً اسمه سالم وهو عليل فأوهمه سلامته من علّته.

---

[٤] انظر الإتقان ٤٣/١.

[٥] سورة الإسراء ١٣-١٤.

وبشأن العرب قبل الإسلام كانوا يتطيّرون، بمعنى أنّهم كانوا يستثيرون الطّير والظّباء وما في حكمهما، وفي ضوء وجهة الطّائر يقومون بالعمل أو يكفّون عنه. إنّ الطّائر إذا اتّجه من اليسار إلى اليمين تفاءلوا وسمّوا هذا الطّائر بالسّانح. وإنّ الطّائر إذا اتّجه من اليمين إلى اليسار تشاءموا وسمّوا هذا الطّائر بالبارح. وهكذا يتبيّن أنّ عمليّة التّطيّر تعني في هذا المرحلة التّفاءل والتّشاؤم معاً. وإنّ ثمّة لطيفةً نودّ أن نشير إليها، وهي ذات عَلاقةٍ بحرفة الصّيد الّتي كان يمارسها بعض العرب والّتي ناضّ أنّها لم تكن حرفةً حقيرة خلافاً لما ذهب إليه بعضهم، ودليلنا على ذلك تغلغل حرفة الصيد في أعماق معجم اللّغة العربيّة، ومن ذلك لفظة التّطيّر أو الطّيرة ولفظة الطّائر، ولفظة مكلّبين وما إلى ذلك. أمّا اللّطيفة فإنّها الّتي نستفيدها من إطلاق لفظة السّانح على الطّائر الّذي يتفاءل به لأنّ الطّائر الّذي يأتي من اليسار إلى اليمين يسهل على من يرميه اصطياده. وقد ترتّب هذه الحقيقة إفادة الأصل اللّغوي سنح معنيين اثنين، الظّهور والسّهولة. ومنه قولهم من لي بالسّانح بعد البارح، والقول المعتاد الّذي يجري على ألسنتنا: سنحت لي فرصة وما إلى ذلك. كما نستفيد هذه اللّطيفة من إطلاق لفظة البارح على الطّائر الّذي يتشاءم به لأنّ الطّائر الّذي يأتي من

اليمين إلى اليسار يصعب على من يرميه اصطياده وقد ترتّب على هـذه الحقيقـة إفـادة الأصـل اللّغـو يـبرح معنيـين اثنـين، الظّهـور والصّعوبة. ومن ذلك البارح الّذي هو خلاف السّانح، والتّباريح: الكُلْفة والمشقّة. وضربه ضرباً مبرّحاً[1].

ويبدو أنّ التّطيّر بمرور الزّمن أخذ يغلب عليه التّشاؤم، وإنّه بالنّظر إلى الآيات الكريمات من سورة الأعراف ويس والنّمل يتبيّن أنّ التّطيّر على ألسنة الكافرين يراد به التّشاؤم من وجود رسل الله تعالى بين ظهرانَيْهم حينما تصيبهم السّيّئة من جدبٍ وفقرٍ ومرضٍ وما إلى ذلك.

وإنّ القرآن الكريم الّذي نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين، والّذي لم يلو للّغة العربيّة عنقاً يستعمل على ألسنة الكافرين الجمل التّي تفيد التّطيّر بمعنى التّشاؤم بالمعنى الجاهليّ وفق طرائق عرب ما قبل الإسلام في تعبيرهم عن هذه المعاني.

وهكذا يتبيّن تطوّر دلالة التّطيّر وتحوّله من إفادة التّفاؤل والتّشاؤم معاً إلى إفادته التّشاؤم وحده غالباً.

وإنّ تطوّر دلالة لفظة الطّائر أقرب تناولاً وأشدّ وضوحاً. ونستطيع أن نتبيّن المعاني المختلفة للفظة الطّائر وتطوّر هذا اللّفظ

---

[1] معجم مقاييس اللّغة: "برح" ١/٢٤٠.

عن طريق وضع تصوّر لرحلة هذا اللّفظ في ضوء ما نصّت عليه المعاجم من معانٍ مختلفة لهذا اللّفظ. وإنّ مثل هذا التّصوّر لرحلة هذا اللّفظ يوميء إلى المعجم اللّغوي التأريخيّ الّذي يرصد تطوّر دلالة كلّ لفظ والّذي تخلو منه المكتبة العربيّة حتّى يوم النّاس هذا.

إنّ لفظة الطّائر تطلق أساساً على الطّائر الّذي يطير بجناحيه في الهواء. ولمّا كان العربيّ قبل الإسلام يستثير الطّائر بقصد أن يتفاءل أو يتشاءم في ضوء اتّجاهه حينما يطير، فإن كان سانحاً تفاءل وإن كان بارحاً تشاءم فإنّ لفظة الطّائر أصبحت تدلّ على التّفاؤل وعلى التشاؤم. ولمّا كان العربيّ في ضوء تفاؤله أو تشاؤمه بمعنى في عمله أو يقوم بعمل آخر فإنّ لفظة الطّائر أصبحت تدل على العمل. ولمّا كان هذا الّذي يعمل قد ينجح وقد يفشل فإنّ لفظة الطّائر أصبحت تدّل على الحظّ، وعلى الخير أو الشّرّ .

ومن البيّن أنّ هذا الحظّ أو الخير والشّرّ إنّما هو بمقياس القوم وبنظرتهم الجاهليّة.

ومن باب المشاكلة أو مراعاة النّظير يجيء على ألسنة رسل الله تعالى في آية سورة يس الكريمة وآية سورة النّمل الكريمة لفظ الطّائرة وكذلك يجيء في آية سورة الأعراف الكريمة ردّاً على آل

فرعون المتشائمين. ومن البيّن أنّ الكافرين يفهمون من استعمال لفظ الطّائر معنى التّشاؤم بالطّريقة الجاهليّة الّتي يعرفون، في حين تريد الآيات الكريمات باستعمال لفظ الطّائر على جهة المشاكلة ومراعاة النّظير معنىً آخر إسلاميّاً وهو أنّ ما حلّ بهم من عذاب شديد إنّما هو من الله تعالى بسبب كفرهم وصدّهم عن سبيل الله تعالى وإتيان الذّنوب وفي مقدّمتها الذّنب الّذي لا يغفره الله تعالى وهو الشّرك. وهذا المعنى الإسلاميّ الجديد يتوّجه مجيء لفظ الطّائر في قول الحقّ جلّ وعلا من سورة الإسراء: ﴿وكلَّ إنسانٍ ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا ﴾ إنّ المراد بالطّائر أعمال الإنسان الّتي قلّدها. فإن كانت حسنةً كانت بمثابة الطّوق الّذي يَزِين جيد الحمامة المطوقة. وإن كانت سيّئةً كانت بمثابة الغُلّ الّذي يشدّ بطبعة اليدين إلى العنق شدّاً، وبمثابة الغريم الّذي يمسك بخناق غريمة.

وهكذا يتبيّن تطوّر دلالة من التّطيّر والطّائر، كما يتبيّن أنّ لفظة الطّائر قد استعملت في الآيات الكريمات استعمالاً جديداً، وقد تجلىّ استعمال هذه اللّفظة في آية سورة الإسراء فريداً. ومن البيّن أنّ هذا المستوى الرّفيع من الدّلالة ما كانت لفظة الطّائر لترقى إليه لولا دين الإسلام الّذي بعث الله تعالى به خاتم الأنبياء

وأشرف المرسلين محمّداً ﷺ ، والّذي أكمله الله تعالى ورضيه لنا وأتمّ به النّعمة علينا، ولولا هذا الكتاب العزيز الّذي نزل بلسان عربيّ مبين، والّذي تكفّل الله تعالى بحفظه إلى يوم الدّين، والّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد.

٢- أهمّ سببٍ في قيام الحضارات وفي دمارها :

تكاد تكون سورة الأعراف من أكثر سور القرآن الكريم نصّاً على الدّروس المستفادة من إغواء الشّيطان الرّجيم أبوينا آدم وحوّاء عليهما السّلام بالأكل من الشّجرة الّتي نهاهما الله تعالى عن مجرّد الاقتراب منها. ونستطيع أن نقول إنّ الآيات الكريمات الّتي تتحدّث في النّهي عن الاقتراب من الشّجرة وإغواء اللّعين والدّروس المستفادة تبدأ بالآية الكريمة التّاسعة عشرة. قال تعالى:﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشّجرة فتكون من الظّالمين ﴾ وتنتهي بالآية الكريمة الثّالثة والثّلاثين. قال تعالى:﴿ قل إنّما حرّم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحقّ وأن تشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾.

ومن بين الدّروس الكثيرة المستفادة نحن المستفادة نحن نورّ أن نقف عند درسٍ عظيمٍ ذي شقّين. ويبيّن أحد الشّقّين أهمّ سببٍ في قيام الحضارات الطّويلة العمر، وبيّن آخر الشّقين أهمّ سببٍ في دمار الحضارات.

أمّا أهمّ سببٍ في قيام الحضارات الطّويلة العمر فإنّه عفاف الجنسين وطهرهما. وإلى هذا السّبب أشار قول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة الثّانية والعشرين: ﴿ فلمّا ذاق الشّجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة ﴾ وأمّا أهمّ سببٍ في دمار الحضارات فإنّه فجور الجنسين وعهدهما. وإلى هذا السّبب أشار قول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة العشرين: ﴿ فوسوس لهما الشّيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما ﴾ وفي الآية الكريمة السابعة والعشرين: ﴿ يا بني آدم لا يفتننّكم الشّيطان كما أخرج أبوكم من الجنّة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنّا جعلنا الشّياطين أولياء للّذين لا يؤمنون ﴾ .

وإنّ أهمّ سببٍ في قيام الحضارات وبقائها أشارات إليه الآية الكريمة الثّانية والعشرون من السّورة الكريمة قد شدّت من أزره آياتٌ كريمات. وهذه الآية الكريمة الثّانية والعشرون. قال تعالى: ﴿

فدلاّهما بغرور فلمّا ذاقا الشّجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة وناداهما ربّهما ألم أنهكما عن تلكما الشّجرةِ وأقل لكما إنّ الشّيطان لكما عدوٌّ مبين ﴾ إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الشّيطان الرّجيم الّذي كذب على آدم وحوّاء عليهما السّلام وزعم أنّ ربّهما جلّ وعلا ما نهاهما عن الاقتراب من الشّجرة إلاّ أن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين، والّذي أقسم لهما بالله العظيم بأنّه لهما لمن النّاصحين المخلصين قد دلاّهما بغروره وأنزلهما من الجنّة بخداعه. فلمّا ذاقا الشّجرة بدت لهما سوءاتهما وظهرت لكلّ واحدٍ منهما عودة الآخر الّتي يسوء صاحبها السّويّ انكشافها وظهورها. ومع أنّ آدم وحوّاء عليهما السّلام زوجان فإنّ الحياء الّذي هو خلق دين الإسلام لله ربّ العالمين والمركوزٌ في طباعهما والرّاسخ في أعماقهما يحملهما على أن يبادرا إلى أن يلصقا عليهما ويخصفا على عورتيهما من ورق الجنّة.

وإنّ هذا الدّرس في الحياء والعفّة والطّهر يعّمقه هذه الآية الكريمة من السّورة الكريمة. قال تعالى[1]: ﴿ يا بني آدم لا يفتننّكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة ينزع عنهما لباسهما ليريهما

[1] سورة الأعراف :١٢٧.

سوءاتهما إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنّا جعلنا الشّياطين أولياء للّذين لا يؤمنون ﴾ إنّ ربّ العزّة يحذّر بني آدم من فتنة الشّيطان الرّجيم لهم كما فتن أبويهم آدم وحوّاء عليهما السّلام وأخرجهما من الجنّة. إنّ اللّعين ينزع عنهما لباسهما الّذي يستر عوراتهما ويخلع بوقاحةٍ وقباحةٍ وجراءةٍ وعنف ملابسهما الدّاخليّة ليري كلَّ واحدٍ من الجنسين عورة الآخر في الحرام. إنّ الشّيطان الرّجيم يرانا هو وقبيله وجنده من حيث لا نراهم ومن ثمّ فنزع اللّعين لباس كلٍّ من الجنسين ليس من أجله ومن أجل جنده لأنّهم يروننا من حيث لا نراهم، ولكن من أجل أن يقضي على الحياء والفضيلة والعفاف لدى كلٍّ من الجنسين. إنّ الله سبحانه وتعالى جعل الشّياطين أولياء للّذين لا يؤمنون أمّا المؤمنون فإنّ الله سبحانه وتعالى هو مولاهم.

إنّ على المسلمين أن يعلموا جيّداً بأنّ الإسلام يقدّم الحقّ والخير على الجمال. وكذلك يفعل كلّ دينٍ سماويّ. أمّا الحضارات البشريّة الزّائفة فإنّها تتقلب فيها الموازين وتضطرب فيها المقاييس. إنّها تقدّم الجمال على الحقّ والخير وهذا هو سبب الفجور والعهر في تلك المجتمعات وحينما نسمع بأنّ من المسلمات من تقف في شواطئ الاستحمام شبه عارية فذلك معناه أنّ المقاييس الإسلاميّة

قد اضطربت لدى هذا الفريق من النّاس لذا وجب تصحيح هذه المفاهيم الخاطئة الآثمة.

وإنّ هذا الدّرس القرآنيّ العظيم في الحياء والعفة والطّهر يعّمقه كذلك الآية الكريمة السّادسة والعشرون من السّورة الكريمة. قال تعالى: ﴿ يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التّقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلّهم يذّكّرون ﴾ إنّ ربّ العزّة ينادي بني آدم ويخاطبهم بأنّه جلّ وعلا قد أنزل عليهم لباساً يواري سواتهم وهو لباس الجلال الّذي يواري العورات، وأنزل ريشاً ولباساً يتجمّل به النّاس ويتزيّنون وهو لباس الجمال إنّ اللّباس الّذي يواري السّوءة ويستر الجسد هو لباس الجلال. إنّ اللّباس الّذي يزيّن الجسد في دائرة الحدود الّتي تجعل الرّجل رجلاً والمرأة امرأة هو لباس الجمال. وإنّ كلاً من لباس الجلال والجمال من آيات الله تعالى الدّالّة على قدرته جلّ وعلا لعلّنا نتذكّر ويتّعظ ونقوم بما يجب علينا من شكر لله تعالى على نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة.

وإنّ ثمّة لباساً ثالثاً خيراً من اللّباسين السّابقين. وهذا اللّباس الثّالث والأخير هو لباس التّقوى المعنويّ والّذي يصحّ أن نطلق

عليه بأنّه لباس الكمال. واللّطيف أنّنا مأمورون بأخذ زينتنا عند ارتياد كلّ مسجد[1].

إنّ المؤمن والمؤمنة مطلوبٌ من كلٍّ منهما أن يرتدى لباس الجلال والجمال والكمال، اللّباس الّذي يواري السّوءات، واللّباس الّذي يتجمّل به كلٌّ من الجنسين ضمن الحدود الّتي أذن بها الشّارع الحكيم، ولباس التّقوى المعنويّ الّذي هو خير.

إنّ هذه الأنواع الثّلاثة من الألبسة هي التّرجمة الصّحيحة الظّاهرة لخلق دين الإسلام لله ربّ العالمين، الحياء أو الطّهر والعفاف.

وإنّ أهمّ سببٍ في دمار الحضارات هو التخلّي عن الحياء والتّخلّص من مظاهر ومقوّماته وإنّ هذا السّبب أومأ إليه قول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة العشرين من سورة الأعراف: ﴿ فوسوس لهما الشّيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما ﴾ وفي الآية الكريمة السّابعة والثّلاثين من سورة الأعراف كذلك. ﴿ يا بني آدم لا يفتننّكم الشّيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ﴾

---

[1] سورة الأعراف: ٣١.

إنّ على المسلمين أن يعوا هذه الدّروس جيّداً . وبالله التوفيق ..

٣- مسئوليّة الرّاعي والرّعيّة :

جاء في الآية الكريمة التّاسعة والتّسعين بعد المائة من سورة الأعراف خطاباً للمصطفى ﷺ أساساً قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ خذ العفو وأمر بالعُرْف وأعرض عن الجاهلين ﴾ ومن البيّن أنّنا بصدد ثلاثة أوامر في الآية الكريمة يوجّهها ربّ العزّة إلى خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين وإمام المتّقين قائد هذه الأمّة المسلمة لله ربّ العالمين وزعيمها ﷺ وكأنّنا بصدد ثلاثة نعوتٍ أو شروطٍ ينبغي توافرها في القيادة المسلمة النّاجحة بإذن الله تعالى. وأوّل هذه النّعوت في القول: " خذ العفو " فالمطلوب من المصطفى ﷺ أن يأخذ من الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم ويقبل العفو من أخلاقهم والسّمح من صفاتهم وما جاءت به نفوسهم وسمحت به طباعهم من غير حرصٍ على التّقصّي. ومن البيّن أنّ دور القيادة هنا التّلقّي .

وثاني هذه النّعوت في القول: ﴿ وأمر بالعرف ﴾ فالمطلوب من المصطفى ﷺ أن يأمر بالعُرْف، أي بالمعروف شرعاً وعقلاً.

ومن البيّن أنّ دور القيادة هنا إيتاء المعروف وإعطاء الخير. وثالث هـذه النّعـوت في القـول: " وأعـرض عـن الجـاهلين " والجـاهلون صـنفان.الجاهلون غـير العـالمين مـن الجهـل ضـدّ العلـم، والجـاهلون السّفهاء غير الحلماء من الجهل ضدّ الحلم. وينبغي أن نستذكر أنّ السّورة الكريمة من المكّيّ من القرآن الّذي نزل قبل الهجرة وقبل الإذن بالقتلى. وفي كلّ الأحوال يظلّ الإعراض عن الجاهلين من أبلغ الأدلّة على حلم القيادة، ذلك الحلم الّذي وجدناه في أخذ القيادة العفو والسَّمْع من النّاس، وفي أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر .

وإذا كانت الآية الكريمة تخاطب الرّاعي وتبيّن أهمّ نعوت القيادة النّاجحة فإنّ في الإمكان أن نتحوّل إلى الآيات الكريمات الثّلاث الأخيرات في السّورة الكريمة والّتي تتحدّث عن الرّعيّة في المقام الأوّل. وإنّ من ألطف ما ينبغي الإشارة إليه والتّنويه به أنّ كلاً من الآيات الكريمات الثّلاث على التّولي تتمشّى مع صفةٍ واحدةٍ من الصّفات الثّلاث على التّوالي في الآية الكريمة الّتي تتحدّث عن الرّاعي. وهذه هي الآيات الكريمات . قال تعالى[1]﴿ وإذا قرىء القرآنُ فاستمعوا له وأنصتوا لعلّكم تُرْحَمون. واذكر

[1] سورة الأعراف ٢٠٤-٢٠٦.

ربّك في نفسك تَضَرُّعاً وخيفةً ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال ولا تكن من الغافلين . إنّ الّذين عند ربّك لا يستكبرون عن عبادته ويسبّحونه وله يسجدون ﴾.

إنّ الآية الكريمة الأولى: ﴿ وإذا قرىء القرآنُ فاستمعوا له وأنصتوا لعلّكم تُرْحَمون ﴾ تتمشّى مع قول الحقّ جلّ وعلا:" خذ العفو " إنّ الرّاعي هنا واحدٌ من الّذين يستمعون القرآن الكريم الّذي ترتّله الأمّة جمعاء ترتيلاً .وحينما يسمع الرّاعي القرآن الكريم متلوّاً فذلك معناه أنّ ثمّة تجاوزاً لصفةٍ حتميّة في القيادة أو الرّاعي الأسوة الحسنة للرّعيّة. وهذه الصّفة هي تلاوة الرّاعي القرآن الكريم ترتيلاً. ومن البيّن أنّ الرّاعي هنا الّذي يستمع القرآن الكريم يقوم بدور الآخذ تمّشياً مع القول: " خذ العفو" وأيّ خيرٍ أكبر من أخذ الرّاعي القرآن الكريم. وبشأن من يُقْرأ القرآن الكريم عليهم أن يستمعوا له استماعاً ويُصْغوا له إصغاءً فبيس ثمّة اكتفاءٌ بالسّماع مجرّداً، وليس ثمّة اكتفاءٌ بالسّماع الواعي. بل لا بدّ من الاستماع وبذل أقصى درجات الاهتمام والانتباه للقرآن الكريم. بل إنّ مرحلة الاستماع والإصغاء للقرآن الكريم بل لا بد من الإنصات والتّدبرّ والتأمل لعلّ رحمة البرّ الرّحيم تشمل المستمعين للقرآن الكريم المنصتين له.

وأن الآية الكريمة الثّانية: ﴿ واذكر ربّك في نفسك تضرّعاً وخيفةً ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال ولا تكن من الغافلين ﴾ تتمشّى مع قول الحقّ جلّ وعلا: " وأمر بالعُرْف " وأيّ أمرٍ بالمعروف وبالخير أكبر من ذكر المرء ربّه ذكراً كثيراً. والمعروف أن الذّكر هو الشّعيرة الوحيدة الّتي لم يصنع الشّارع الحكيم نهايةً لها لسهولة الذّكر في كلّ الأوقات والأحوال. وإذا كانت الاستماع للقرآن الكريم الّذي جاء الأمر به في الآية الكريمة السّابقة يعني رفع الصّوت، فإنّ الصّوت هنا مع الذّكر غير مسموع أو غير مرفوع، كما أنّ المسلم في ذكره ربّه جلّ وعلا ذكراً كثيراً ينبغي عليه أن يكون خائفاً خاشعاً وجلاً. ومن البيّن جميل المعنى وجليل المبنى في الآية الكريمة. إنّ ذكر الله تعالى يكون في النّفس ودون الجهر من القول. وهاتان الحالتان رمزٌ لسواهما من الحالات. وإنّ ذكر الله تعالى يكون تضرّعاً وخيفة. وهاتان الحالتان رمزٌ لسواهما من الحالات. وإنّ ذكر الغدوّ والآصال، أوائل النّهار وأواخره رمزٌ لسواهما من الأوقات. وهكذا تتجلّى الثّنائيّة في الآية الكريمة الّتي تتوّج بالنّهي عن الغفلة.

وإنّ الآية الكريمة الثّالثة والأخيرة في السّورة الكريمة: ﴿ إنّ الّذين عند ربّك لا يستكبرون عن عبادته ويسبّحونه وله يسجدون

﴾ تتمشّى مع قول الحقّ جلّ وعلا: " وأعرض عن الجاهلين " وأيّ جهلٍ أكبر من الاستكبار عن عبادة الله تعالى . وهل ثمّة من جهلٍ وسفه يفوق جهل المستكبرين عن عبادة الله تعالى وسفههم. أليس هؤلاء المستكبرون عن عبادة الله تعالى هم أَوْلى النّاس بالإعراض عنهم. إنّ الآية الكريمة أنّ الملائكة المقرّبين الّذين عند ربهم جلّ وعلا لا يستكبرون عن عبادته جلّ وعلا ويسبّحونه عزّ وجلّ ويقولون: سبحان الله ويسجدون له جلّ وعلا في الصّلاة وفي غير الصّلاة. إنّ على كلّ م الرّاعي والرّعيّة أن يتحلّوا بهذه الصّفات البهيّة.

خاتمة

من الصّفحات السّابقة وتحت عنوان: " لمحاتٌ في إعجاز سورة الأعراف"

قمنا باستلام هذه الدّراسة من كتابنا: تأمّلاتٌ في سورة الأعراف، الّذي يقع مخطوطه فيما يزيد على السّتّمائة صفحة. وهذه الدّراسة تألفت من شقّين. الأوّل تحت عنوان: مسائل متعلّقة بسورة الأعراف. والثّاني تحت عنوان: من مظاهر إعجاز سورة الأعراف وهو يشمل تطوّر الدّلالة للفظتي التّطيّر والطّائر، وأهم سببٍ في

قيام الحضارات وفي دمارها. أمّا أهمّ سببٍ في قيام الحضارات وبقائها فإنّه عفاف الجنسين وطهرهما. وأمّا أهمّ دمار الحضارات وفنائها فإنّه فجور الجنسين وعهرهما، كما يشمل مسئوليّة الرّاعي والرّعيّة.

أسأل الله تعالى أن يتفضّل بقبول هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، وأن يعفو عمّا بدر من التّقصير، وألاّ يحرمنا من الأجر، إنّه جلّ وعلا قريبٌ مجيب . وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

فهرست المصادر والمراجع

القـــــرآن الكريم

ابن تيمية (أحمد بن عبدالحليم) الجواب الصّحيح لمن بدّل دين المسيح القاهرة بدون تاريخ.

ابن الجوزي (أبو الفرج عبدالرّحمن) زاد المسير في علم التّفسير. الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م لمكتب الإسلامي للطباعة والنّشر. دمشق. بيروت.

ابن عطيّة (أبو محمّد عبدالحقّ) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق وتعليق الرّحّالي الفاروقي، عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، السّيّد عبدالعال السّيّد إبراهيم، محمّد الشّافعي صادق العناني. الطبعة الأولى قطر ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م.

ابن فارس (أبو الحسين أحمد) مقاييس اللّغة. تحقيق وضبط عبدالسّلام محمّد هارون. الطّبعة الثّانية ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م حلبي مصر.

ابن كثير (الحافظ عمار الدّين أبو الفداء إسماعيل) تفسير القرآن العظيم دار إحياء التّراث العربي بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م

أبو حيان (مُحَمَّد بن يوسف بن عليّ بن يوسف بن حيّان) البحر المحيط. بيروت نسخة مصوّرة.

باجودة (حسن محمّد) تأمّلات في سورة الإسراء القاهرة ١٩٧٨م تأمّلات في سورة البقرة القاهرة ١٩٩٢م

البيضاوي (أبو الخير عبدالله بن عمر) أنوار التّنزيل وأسرار التأويل. الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م حلبي مصر.

الرّاغـــــب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمّد) المفردات في غريب القرآن. تحقيق محمّد سيّد الكيلاني. دار المعرفة بيروت. بدون تاريخ.

الزّمخشري (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر) الكشّاف. حلبي١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.

السّيوطي (جلال الدّين عبدالرّحمن) الإتقان في علوم القرآن. تحقيق مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة ١٩٧٤م تفسير الجلالين. الدّر المنثور في التّفسير بالمأثور. دار الفكر. بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

الشّوكاني (محمّد بن علي بن محمّد) فتح القدير. حلبي . تصوير بيروت.

النّسفي (أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود) تفسير النّسفي. دار إحياء الكتب العربيّة حلبي. نسخة مصوّرة بدون تاريخ.

النّيسابوري (الحسن بن محمّد بن حسين) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان. مطبوع بهامش تفسير الطّبري بولاق ١٣٢٩هـ.

فهرست الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدّمة	٣
مسائل متعلّقة بسورة الأعراف	٤
من مظاهر إعجاز سورة الأعراف	١٨
١- تطوّر الدّلالة	١٨
٢- أهمّ سببٍ في قيام الحضارات وفي دمارها	٢٤
٣- مسئوليّة الرّاعي والرّعيّة.	٢٨
خاتمة	٣١

فهرست المصادر والمراجع ٣٢
فهرست الموضوعات ٣٤